المحاضرة الرابعة: مدخل إلى اتجاهات الشعر الجزائري

تمهيد

توالت الأحداث على الجزائر، وكان أشدها تأثيرا في التحول العميق الذي مس الجزائر اقتصاديا وسياسيا وثقافيا واجتماعيا، حيث كانت تلك الأحداث بمثابة الصدمة التي ردت الوعي إلى الجزائريين، وانتزعتهم من غيبوبة الشطحات الصوفية التي سادت القرن التاسع عشر، لتلقي بهم في حضارة القرن العشرين.

ولعل أبرز ما تمخضت عنه هذه الحرب بالنسبة للجزائريين ذوي الاتجاه العربي الإسلامي، تلك النهضة الفكرية والاجتماعية والوطنية التي بدأت مع بداية أول حركة إصلاحية في الجزائر سنة 1925.[1] فإن الأثر الذي تركته هذه الحركة في النهضة القومية كان من الأصالة والعمق أن وضع أول خطوة ثابتة في طريق الشعور بالذات وكان من الشمول والإحاطة أن مس نواحي الحياة كلها. بدأت هذه الحركة اجتماعية دينية، وانتهت سياسية وطنية، واستطاعت لأول مرة أن تجمع حولها نخبة من ذوي الثقافة العربية الإسلامية من جميع جهات القطر الجزائري.

من هنا يمكن القول إن البداية الحقيقية للنهضة الأدبية الحديثة في الجزائر، إنما ارتبطت بهذه الحركة الإصلاحية. ذلك لأن الذين قاموا بها تخرجوا في المعاهد العربية العالية بتونس والمشرق، وكانوا على صلة وثيقة بالحركات الوطنية والإصلاحية التي كانت تشهدها هذه البلاد، وكان تأثرهم بالنهضة المصرية من العوامل التي زودتهم بالمدد الروحي. كما كان دور تونس في هذا المجال بارزا فعالا، وإن نظرة واحدة على كتاب شعراء الجزائر لتؤكد ذلك، فأغلب ما نشر في هذا الكتاب نشر قبل ذلك في الصحافة التونسية. وأن الكتاب المذكور سابقا صدر في تونس.

تلك هي المنابع الأساسية لهذه الحركة الأدبية والتي كان الفضل في إذاعتها وتوجيهها لابن باديس وغيره من رجال الإصلاح، فإن أول ما قامت به هذه النخبة المثقفة أن أسست

---

[1] – ينظر: محمد البشير الإبراهيمي، سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، دار المعرفة، باب الواد ي،/ الجزائر، 2009، ص ب.

الصحف العربية وكان من أبرزها جريدة (المنتقد) التي برزت سنة1925، والتي تعتبر بمثابة النادي الثقافي والأدبي الذي تجمعت فيه أقلام الشباب كتابا وشعراء. وإليها يرجع الفضل في احتضان الأدب الناهض كما كانت تسميه، وتوجيه المواهب المتفتحة، وإطلاع الأدباء الجزائريين على ما يجدّ في عالم الأدب العربي من إنتاج جديد. وهي إلى جانب هذا استطاعت أن توحد خطى الفئة المثقفة نحو هدف واحد، هو العمل جماعيا في سبيل إحياء الشخصية العربية الإسلامية وتطعيمها بدماء جديدة تستطيع معها الوقوف صامدة في وجه التيارات المضادة.

ومن ثم أخذ الشعر الجزائري نفسا جديدا، وظهرت صحف وطنية أخرى تحمل الفكرة نفسها نذكر منها: الشهاب 1925، صدى الصحراء 1925، وادي ميزاب 1926، الإصلاح 1927، البرق 1927. وراحت تسلك المنهج الذي سلكته المنتقد توجه الشعر وتغذيه، فوجد إنتاج غزير، وظهرت في العشرينيات أسماء كثيرة لشعراء تسهم في تغذية الشعر، وتؤيد الحركة الإصلاحية، وامتلأت أعمدة الصحف بنماذج كثيرة من الشعر تتفاوت في الأسلوب والمحتوى من شاعر لآخر[1].

وقد أصاب الشعر على يد الحركة الإصلاحية تطور ملموس تجلى في ظهور شعر جديد يختلف كثيرا عن شعر ما قبل الحرب العالمية الأولى، متعدد الأغراض يتماشى مع الواقع الاجتماعي، ويستلهم وجدانه الجماعي، فكان أن ظهر الشعر الوطني الإصلاحي، والاجتماعي والسياسي. كما تطور من ناحيته الفنية بعض التطور فابتعد عن المقدمات التقليدية المتكلفة، وتخلصت اللغة الشعرية نسبيا من لغة المنظومات العلمية والفقهية، واكتسب التعبير نوعا من الانطلاق والحيوية، وتخلص كثيرا مما كان يثقله من آثار الصناعة اللفظية والبديع المتكلف. كما استطاعت بعض القصائد أن تعرف نوعا من الوحدة في الموضوع[2].

واستطاع بعض الشعراء أن يستجيبوا و يتفاعلوا مع بعض الاتجاهات الحديدة كالاتجاه الوجداني الرومانسي وحاول بعضهم أن ينظر إلى الشعر نظرة نقدية متفحصة ويدخل عليه نوعا من التجديد في الوزن والقافية. ونتيجة لهذا التطور الملموس في فهم وظيفة الشعر ودوره

---

[1] – ينظر: محمد ناصر: الشعر الجزائري الحديث اتجاهاته وخصائصه، ص29.

[2] – ينظر: المرجع نفسه، ص 30-31.

في الحياة، برز إلى الوجود ما يمكن أن يعتبر أول ديوان شعر جزائري يضم بين دفتيه (شعراء الجزائر في العصر الحاضر)[1] قدم إنتاج اثنين وعشرين شاعرا يختلف شعرهم عما ألفه الناس ممن سبقوهم، أصالة وانطلاقا، مضمونا وشكلا.

وقد قام محمد ناصر بدراسة موسومة ب(الشعر الجزائري الحديث اتجاهاته وخصائصه الفنية 1925-1975، صنف من خلالها الشعر الجزائري الحديث في ثلاثة اتجاهات رئيسية هي:

1-الاتجاه التقليدي المحافظ.

2- الاتجاه الرومانسي الوجداني.

3-الاتجاه (الجديد) الشعر الحر.

أولا- الاتجاه التقليدي المحافظ

كان من الطبيعي أن يرتبط الأدب الجزائري الحديث في نشأته بتيارين عظيمين في حركة اليقظة والنهضة العربية:

الأول: هو تيار الإصلاح الديني والاجتماعي لإنقاذ عامة الشعب الجزائري وخاصته من التردي في الضلالات والأباطيل التي زرعها الفكر الاستعماري، وغذتها عقول الجهل وانتشار الأمية، لتخليص العقل من الوهن وذهنيات التواكل والإيمان بالخرافات من ناحية، وزرع عناصر الثقة بالنفس وقيم العمل والنضال والعودة إلى المنابع الأولى الصافية في العقيدة الإسلامية من ناحية أخرى.

أما الثاني: فيتمثل في ارتباط الشعر الجزائري الناهض بمنابع الشعر العربي القديم، واتكائه على قصائد الشعراء المشاهير في التراث، واحتذاء طريقتهم في نسج الشعر وبنائه، أو ما يسمى بعمود الشعر العربي في الأوزان والأغراض والاستعارات والصور، وحتى الألفاظ أو المعجم اللغوي المستمد من القرآن والحديث الشريف، ومن كلام العرب الفصيح. والغاية من ذلك هي زرع دماء جديدة في اللغة العربية التي حاربها الاستعمار في الجزائر بشراسة وأضعفها ومنع الكتابة بها إلا في أضعف الحدود.

[1] - المرجع السابق، ص31.

ويؤكد محمد ناصر هذا الحكم بمقطع من مقال كتبه محمد السعيد الزاهري في مجلة الرسالة القاهرية سنة 1936، جاء فيه "وما من شيء له أثر في حياة المغرب العقلية والاجتماعية إلا وهو مصري غالبا، وكل حركة دينية أو أدبية في مصر لها صداها القوي في المغرب العربي. فللأستاذ المرحوم الشيخ محمد عبده المصري أنصار ومريدون، وفكرة الإصلاح الإسلامي التي يدعو إليها، أصبحت اليوم في الجزائر مذهبا اجتماعيا يعتنقه الكثرة الكثيفة من الناس"[1].

ويقول أبو القاسم سعد الله: "أما المدرسة الخارجية التي تأثر بها الشعر الجزائري، فهي مدرسة شوقي وحافظ والرصافي، وهي مدرسة زعماء الشعر الإصلاحي –إن جاز التعبير– ويسميها العقاد المدرسة الوسطى. فهؤلاء الشعراء ساروا مع النهضة العربية الصاعدة، وعبروا عن أزمات ويقظة الشعب العربي، واتخذوا من الواقع العربي –الإسلامي موضوعات خصبة، ومن هنا نستطيع القول بأن هذه المدرسة الشرقية قد انتقلت إلى الجزائر مع فارق واحد، هو أن شعراء الجزائر قد ألبسوها ثوبا محليا وصبغوها بألوان بلادهم، ولعل محمد العيد، وأحمد سحنون، ومفدي زكرياء، ومحمد اللقاني، والغزالي، وأمين العمودي، وسعيد الزاهري، والهادي السنوسي أحسن من يمثل هذه المدرسة في الجزائر[2].

أما سبب ذلك فهو أن الفترة التي عاشتها الجزائر منذ أوائل القرن العشرين حتى الحرب العالمية الثانية هي تقريبا نفس الفترة التي عاشها الشرق العربي إبان ظهور تلك المدرسة الأدبية. ومن هنا نجحت في الجزائر كما نجحت في الشرق، لأن الأوضاع متشابهة والأهداف تكاد تكون واحدة.

بناء على ما سبق فإن النفر الذين يشكلون المدرسة المحافظة في الشعر الجزائري هم الذين تضمّنهم كتاب شعراء الجزائر في العصر الحاضر، الذي طبع الجزء الأول والثاني منه بتونس على التوالي سنتي: 1926/1927. وهم

---

[1] – محمد السعيد الزاهري (مكانة مصر في المغرب العربي)، مجلة الرسالة، عدد 135، 1936/03/03، القاهرة، مصر، ص178.

[2] – أبو القاسم سعد الله، دراسات في الأدب الجزائري الحديث، منشورات دار الآداب، ط1، ، بيروت، لبنان، 1966، ص51.

1- محمد العيد حم علي (آل خليفة).

2- محمد اللقاني بن السائح.

3- الشاعر محمد السعيد الزاهري.

4- الجنيد أحمد مكي.

5- أبو اليقظان.

6- الطيب العقبي.

7- مفدي زكرياء.

8- أحمد كاتب بن الغزالي.

9- رمضان حمود بن سليمان.

10- إبراهيم بن نوح امتياز.

11- محمد الهادي السنوسي الزاهري صاحب الكتاب.

أما الجزء الثاني من الكتاب فقد ضم عشرة شعراء هم على الترتيب[1]:

1 - الأمين العمودي.

2- محمد المولود بن الموهوب.

3- الطاهر بن عبد السلام.

4- حسن أبو الحبال.

5- محمد الصالح خبشاش.

6- المولود الزريبي.

7- محمد العلمي.

8- محمد بن الحاج إبراهيم الطرابلسي.

9- أحمد بن يحيى الأكحل. 10- محمود بن ذويدة.

وهناك شعراء آخرون لم يشملهم كتاب شعراء الجزائر، عاشوا فترة العشرينيات منهم: عمر بن قدور الجزائري أحمد سحنون، الربيع بوشامة، عبد الكريم العقون ،سعد الدين الخمار، حمزة بوكوشة، وهؤلاء الشعراء لهم فضل كبير في الساحة الأدبية الجزائرية.

[1] - تنظر تراجم هؤلاء الشعراء بأيديهم وأقلامهم في الجزأين: الأول والثاني من الكتاب (شعراء الجزائر) المذكور آنفا .

ولم يول هؤلاء أهمية لماهية الشعر، ولم يُنظّروا له كما فعل غيرهم ممن تأثر بالمدارس والتيارات الأدبية الوافدة، وإنما انصب اهتمامهم على وظيفة الشعر ودوره الإحيائي لأوضاع اجتماعية وثقافية ودينية كادت أسسها أن تزول بفعل التدمير الذي أحدثه الإستدمار الفرنسي.

2-أغراض شعرهم

إن هذا الشعر قد غطى جميع الأغراض والتزم الخط الإصلاحي الذي تمليه ظروف البلاد الواقعة تحت الاستعمار، فقد دافع الشعراء عن الدين الإسلامي وعن اللغة العربية، وهاجموا الاستعمار والطرقيين، وعالجوا القضايا الاجتماعية المختلفة فتحدثوا عن الفقر والفقراء، وشخصوا الجهل وأسبابه ودعوا إلى العلم، وهاجموا الانحراف، والفساد وحثوا على توعية المرأة وتعليمها، ودعوا إلى التعبئة السياسية على صعيد الجمعيات، وتناولوا القضايا السياسية، فتحدثوا عن القضية الجزائرية ومجلس الأمن، وعن مؤسسات الثورة كجبهة التحرير وجيش التحرير وأرهصوا للثورة وتنبئوا بها، وواكبوا مسارها، فألهبوا الحماس ووصفوا المعارك وكشفوا جرائم العدو، ومدحوا الزعماء و رَثوا الشهداء. وفي هذا يقول الدكتور عبد الله ركيبي: "والدارس للأدب الجزائري الحديث يلاحظ أن الشاعر في هذه الفترة كان يتأمل واقع المجتمع وما استشرى فيه من داء محاولا إصلاحه من زاوية الدين، فنراه يذكر في كل مناسبة بأن الرجوع إلى القيم الروحية واقتفاء أثر السلف الصالح، هو سبيل النجاة، وأنه لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها"[1].

ثانيا- الاتجاه الرومانسي الوجداني

للحديث عن هذا الاتجاه (الاتجاه الروماني الوجداني) في الشعر الجزائري يجدر بنا أن نقف عند كتابين يمكن الوثوق والاطمئنان إليهما في تحديد وجود أو عدم وجود هذه المدرسة الأدبية في الشعر الجزائري الحديث:

أو لهما هو كتاب المؤرخ الأديب الناقد أبو القاسم سعد الله، (دراسات في الأدب الجزائري الحديث) الذي جاء فيه كلام مقتضب عن نشأة الرومانتيكية في الشعر الجزائري هذا نصه:

"كان الشعر الجزائري قليل التأثر بالمذاهب الأدبية الصرفة، ميالا إلى الاعتدال و الحذر في اعتناق كل شيء غير ديني وغير إصلاحي، ولذلك لم تنجح الرومانتيكية في الجزائر بالرغم من

[1] - عبد الله ركيبي: الشعر الديني الجزائري الحديث، ج2، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2009، ص 363.

وجودها في الشعر الفرنسي وفي شعر الشابي في تونس. وهذا لا يعني أن الرومانتيكية لم تدخل الجزائر على الإطلاق، ولكن معناه أن الذين أرادوا الانتفاع بها مثل الطاهر البوشوشي وجلول البدوي، لم يصلوا إلى شيء لأن الظروف الاجتماعية وقفت حائلا. ويبدو أن محمد العيد بالخصوص قد تأثر بجبران وفلسفته إلى حد كبير سيما في قصائده التالية: (هيجت وجدي، يا ليل، يا قلب، وليت نحوك وجهي)"[1].

أما الكتاب الثاني الذي تحدث عن هذا الموضوع بشيء من التفصيل هو (الشعر الجزائري الحديث اتجاهاته وخصائصه الفنية 1925-1975). للدكتور محمد ناصر الذي حاول أن يحدد ملامح هذا المذهب ومؤثراته الأساسية.

بعد أن أشار إلى صعوبة إيجاد تعريف جامع للمصطلح حاول استخلاص تعريف للرومانسية انطلاقا من مهد ظهورها (الأدب الأوروبي) وبيان أصولها والأسس التي قامت عليها ومقارنة بينها وبين المدرسة الكلاسيكية خلص الدكتور محمد ناصر إلى السؤال التالي: أين يقف الشعر الجزائري المتجه اتجاها رومانسيا من كل هذا؟"[2].

ثم راح ينفي وجود مدرسة أو مذهب رومانسي بالمعنى الدقيق في الشعر الجزائري، لأن الرومانسية كما عرفتها أوروبا، كانت فلسفة متكاملة في الحياة، والمجتمع، والدين، وغيرها، بينما ظلت في الجزائر مجرد اتجاه لاختلاف الظروف،ولم يشأ الناقد استعمال مدلول المدرسة أو المذهب وفضل استعمال مصطلح (الاتجاه الوجداني) ربما لغياب الملامح العامة لهذا المذهب في الشعر الجزائري الحديث لأن هذا الشعر لم يعرف الاتصال المباشر الواسع بالآداب الأوروبية الرومانسية خلاف بخلاف الشعر العربي في مصر والمهجر[3].

ويمكن القول إن بذور الاتجاه نحو الرومانسية بدأت تظهر مع بوادر اليقظة القومية قبل الحرب العالمية الأولى وأثناءها. فالدكتور عبد الله ركيبي يشير إلى أن نصوصا شعرية ظهرت في هذه الفترة تصف الواقع المرير في نغمة يائسة، ونظرة قاتمة، ومشاعر واعية بالفرد وتطلعاته إلى غذ أفضل، وقد دلت بعض تلك القصائد من خلال عناوينها على ما تحمله من هذه الأحاسيس

---

[1] – أبو القاسم سعد الله، دراسات في الأدب الجزائري الحديث، ص49.

[2] – محمد ناصر، الشعر الجزائري الحديث اتجاهاته وخصائصه الفنية، ص85.

[3] – المرجع نفسه، ص85-86.

(دمعة على الملة)، (زفرات العشي)، (زفرات الحيران ذي الشجن)، (دمعة كئيب) إلى آخره. ولكن هذه النصوص لا تتعدى كونها بذورا تعبر عن مشاعر الشعراء إبان الحرب العالمية الأولى، إزاء الحياة والمجتمع[1].

غير أن البداية الحقيقية لهذا الاتجاه، إنما بدأت مع الأشعار التي ظهرت بعد الحرب العالمية الأولى مع بداية الوعي بالواقع الاجتماعي والسياسي ، لأن الأوضاع المؤلمة التي فرضها الاستعمار آنذاك تعد مؤثرا أساسيا في مشاعر الحزن الكآبة التي لونت الشعر الجزائري آنئذ حتى غدت طابعا عاما يميز أغلب الإنتاج الشعري الذي ظهر في العشرينيات ولم تفارقه إلا بعد أن تأسست جمعية العلماء المسلمين[2].

[1] محمد ناصر، الشعر الجزائري الحديث اتجاهاته وخصائصه الفنية، ص88.

[2] -ينظر: المرجع نفسه، ص88.